الخطر الذي يهدد المدنية

هل تنتهي الحرب بانقراضها ؟

نقولا الحداد

ما هي المدنية التي نعني ؟

هي حياة الأمم جمعاء في طبا ينبغي ، وفي الفردوس الذي ينشئهُ العلم ويوسعه على توالي الأيام هذا الفردوس في خطر عظيم من أفعى الفساد وشيطان الشر اللذين أوغلا فيه وطفقا يقتلعان أشجاره ويلفحان أزهاره ، ويتلفان ثماره . فاذا لم يضرب ملاك الخير بسيفه عنقيهما تركاه خراباً يباباً . ومن يدري ان كان الله يغرس بعد ذلك فردوساً ثانياً ويجبل من ترابه آدماً جديداً يعيش فيه عيشة راضية

وكان أنه لما أمعن الناس في الشر لعهد نوح أفناهم الله بطوفان ماء . فهل هو مفنيهم الآن بطوفان نار ؟

رأينا العلم الحديث ينشيء على سطح الكرة الأرضية براً وجواً وبحراً فردوساً غض الشجر ، يانع الثمر ، عاطر الزهر ، عذب الغدر ، ناعم الأديم ، رطب النسيم — هو النعيم الذي كان يتوخاه عقل الانسان ويشتاقه قلبه وتطيب به نفسه ، فما باله انقلب جحيماً تجري من تحته أنهارٌ من دم تمخر فيها من الدبابات أساطيل وترمي أهله عفاريت سمائه بحجارة من سجيل . أ كان العلم شيطاناً رجيماً ؟ وكان معمله للناس جحيماً ؟ كلا بل العلم ملاك كريم . وأنما قلب الانسان زنيم لئيم . إذن أين مصدر الخطر على جنة المدنية الجديدة ؟

مصدر الخطر في قلب الانسان نفسه . أنهُ المعرفة مزدوجة — معرفة الخير ومعرفة الشر . فاختار معرفة الشر . جعل العلم الذي كانت وسائله منح الهناءة للناس أداة للشر والشقاء . فالعلم الذي أنشأ الفردوس هو نفسه الآن يدمر هذا الفردوس ، فليت آدم بقي عرياناً جاهلاً — ليتهُ لم يعتدِ على شجرة معرفة الخير والشر

***

مررت أمس بكبير مصارف (بنوك) العاصمة فرأيته مدثراً بأكياس الرمل الى عنقه ، تحامياً لشظايا قنابل الطائرات . ثم مررت بمعبد فرأيته عارياً من هذه الحصانة الرملية . ثم مررت بمعهد فاذا هو محاطٌ بسلسلة من تلك الاكياس . فقلت : يا لله ! هل صار المالُ اعزّ من الانسان وأغلى ؟ سبحان الله ! المال الشرير الحزب يخاف على نفسه من كوارث الحرب :— أجل ان هيكل المال مهددٌ بالدمار شأن البيت المبني على الرمل سريع الانهيار

ان هذه المدنية غنية بالاختراعات . ولكن قس اختراعاتها تحطم أدواتها . وغنية بالترف والبذخ ، والترف والبذخ يحدران اخلاقها حتى الموت . وغنية بالمال ، واله المال "حنة" الشهوات فسام مدنيته الكوارث والنكبات . وغنية بالمعرفة ، والمعرفة ابتدعت الآلات تدميرها

اذن هذه المدنية كاذبة لانها تغر الانسان بالسعادة فلا يلبث أن يرى السعادة سراباً فيموت صادياً في بحر من الشقاء أجاج الماء . أجل ان هذه المدنية مزيفة تحمل في اذيالها اسباب فنائها

أتخشى اذله اله يكون أملها داثياً ؟

هي الآن على مفرق طريقين عند تقاطعهما : طريق الدكتاتورية . وطريق الدمقراطية . يتقاطعان الآن ثم يفترقان . وفي أحد المفترقين سلامة المدنية وفي الآخر فناؤها

ليست الدكتاتورية شراً على الاطلاق ، فقد تكون خيراً اذا كان الحاكم بأمره صالح الضمير . ولا الديموقراطية خيراً على الاطلاق ، فقد تكون شراً اذا لعب فيها شيطان الوساوس ونخرها سوس الفساد . وانما الدكتاتورية والديموقراطية رمزان او اسمان لنظامين يغلب في أولهما شر قلب الانسان ويغلب في الأخرى صلاح قلب الجماعة

لسوء الحظ ان الدكتاتوريات الحالية ممثلة في نفوس أشخاص يستغلون لأنفسهم قوى الجماعة بدعوى الجهاد لخير الجماعة ورفاهية الجماعة . وانما هم بالحقيقة يضحون بهناءة الجماعة وسلام العالم على مذبح شهواتهم الشخصية

سل الألماني او الايطالي بأي نعيم كان ينعم في العشرين سنة المنصرمة ؟ أبالتقتير المؤلم في نفقاته وبالعمل الشاق في مصانع السلاح استعداداً للحرب ؟ ويالها من حرب تتقذف فيها تلك الاستعدادات الدافقة دخاناً الى السماء ، وحطاماً في الفضاء ، وممها اشلاء الذين صنعوها . أهذا هو النعيم الذي كان الدكتاتور يمنيهم به ؟ وما هو ذلك النصر الذي كان يغررهم به اذا كانت مقدماته ذلك الجهاد المضني في المعمل وفي العسكر وفي المعترك ، وخواتيمه تلك الاشلاء المتطايرة بين الأرض والسماء والديار المدمرة في البر والسفن المحطمة في البحر ؟

ولعلهم كانوا يعللون النفس بنعيم ارض الميعاد التي كان موسّاهم يمنيهم بها حين يتفانون في القتال على أمل النصر . أفبعد ان ينقضي شبابهم في الاستعداد ويفنى شبابهم في الجهاد يتمتعون ؟ عشرون سنة مضت وهم يشقون . فهبهم ربحوا الحرب ، فمن يبقى منهم لكي ينعم بغنائمها ؟ وماذا يبقى من نعيم ؟ سيرون بعد هذا الجهاد الشاق انهم غنموا خراباً يباباً ، وان النعيم الذي دفعوا ثمنه علقاً شاقاً وأرواحاً غالية لم يكن الا سراباً . هذه هي رحلة الدكتاتورية : من الوعود الى الخيبات !

وماذا يرجى غير هذه الخيبات اذا كان الحاكم بأمره يعد صعاليك شعبه بالرفاهية على حساب نهب شعوب اخرى . والشعوب الأخرى ليست أضعف بأساً ولا هي أقل اعتصاماً بحبل الحياة

يتمتعوا بنتاج عملهم ، بل لكي يبرزوا السلاح الألماني الذي يستعمل لاستعبادهم . ومتى أوالي الذين تتلاشى الامم الأخرى ثم تنقرض ، كما انقرضت الوحوش امام قوة الانسان ، وتخلي سطح الكرة الارضية لكي تملأه سلالة الألمان . وهكذا تصبح بقاع الأرض في أقاصيها الأربعة ملك أمة واحدة فقط . ولكن أية أمة ؟ — امة أرقاء تتحكم فيها شرذمة من الزعماء الطغاة ردحاً من الزمن الى ان يدب الشقاق بين هؤلاء الزعماء فيختصمون الى ان يقتسموا ذلك التراث الفني العلمي وتعود السلالة البشرية الجرمانية الام مجموعة امم في مجموعة ممالك . ولا تلبث ان تتداولها الحروب وتبيدها الممالك وربما بقيت حثالة في زنوج مجاهل افريقيا نسيها الدمار لانها بلا وطن ولا دار . ومن يدري ان كان هؤلاء الفضلة من الانسان يستطيعون ان يستأنفوا الحضارة وينشئوا مدنية جديدة في ألوف القرون ، او انهم ينقرضون أيضاً ولا يبقى أخيراً من يرث ملكوت الانسان الا الضواري والحشرات . وبتجه نمو سنة النشوء والارتقاء اتجاهاً آخر لا يعلمه الا علام الغيوب . هذه عاقبة الفرض المحال الذي فرضناه آنفاً وأمني به انتصار هذين الدكتاتورين الجهنميين على الديموقراطية الحقة

واذا كانت نهاية هذه الحرب اندحار الهتلرية وانهيار الدكتاتورية كما هو إيمان جميع الأمم الراغبة في السلام فالأمر الذي لا ريب فيه ان السلالة البشرية ستخرج منها خروج المريض للصاب بحمى خبيثة ، منهوكة القوى مضعضعة الوجدان تستغرق نقاهتها مدة طويلة من الزمان

من ثم السبب ؟

ولعل القراء يتساءلون عمن هو الجاني الأصيل في هذا الجنون الاجتماعي الوبيل الذي حطم فيه الانسان معالم مدنيته ودمر به جميع أسباب رفاهيته من غير ان يحسب حساب ربحه أو خسارته في هذه المقامرات التي لا يمكن ان يكون الحظ فيها الا نحساً

قالوا : السبب هو معاهدة فرساي . وعندي ان معاهدة فرساي لم تكن سبباً حقيقياً البتة . بل كانت حجة لطغاة الالمان يتذرعون بها لغزو الانسانية . واذا كانت معاهدة فرساي السبب الحقيقي فما شأن نروج ودنمرك وهولاندا وبلجيكا في هذا النزاع ؟

لو لم تكن معاهدة فرساي قد وجدت في حوادث التاريخ لاختلق الألمان سبباً آخر لغزو الانسانية كما اختلقوا السبب في الحرب الماضية . ولم يكن ثمت من سبب لها غير رغبة طغاة الألمان ولا سيما العسكريين منهم في اجتياح العالم لكي يؤسسوا امبراطورية السوبرمان الجرماني .

فسبب هذه الثورة الجرمانية الجنونية هو اقلام بعض مفكريهم الهوج وأخصهم نيتشة الذي طلع على العالم بمبدإ اجتماعي سليط ينقض اركان الاجتماع ويقوضها الى الأساس ، وهو تمجيد القوة وسحق الضعيف . وبعبارة اوضح هو تمجيد « تطبيق سنة التنازع الحيوانية على الهيئة

الاجتماعية في حين أن هذه السنّة تتلاشى رويداً أمام سنة التعاون والتضامن الانسانية التي هي أساس الاجتماع . ولولاها لما كان اجتماع انساني ، ولا امتاز الانسان على الحيوان بشيء

تسمم البشرية النظامية بسم السوبرمانيه

تبدأ فلسفة نيتشه ومن جاروه لا يختلف عن مبدإ التنازع الحيواني الاّ بأن العامل فيه العقل المفكر المختار لا الغريزة المسيرة . ولذلك هو أفظع شرّاً من التنازع الحيواني . وسلوك الألمانيين الوحشي في هذه الحرب هو أوضح برهان —لا رحمة ولا عطف ولا رفق بل جبروت وقسوة وتقطيع لاحد له ، تقطيع لا تأتيه الضواري

هذه الفلسفة النيتشية التي افتتن بها غليوم قبل هتلر وتسمم بها نظامه العسكري وقواده وجنوده حتى أخرجهم غرورهم من تحت سلطة القانون المدني بحيث يباح للجندي ان يقترف أية جريمة لأن النظام العسكري يحميه من العقوبة هي السبب الأساسي . ولذلك كانت القوة العسكرية الألمانية منذ عهد غليوم دائبة الشوق الى الحرب تتحين أية فرصة لخوض غمارها

وكان هتلر وصحبه أكثر تسمماً بهذه الفلسفة . فجاءت النازية مرض هذا التسمم الذي تفشى في الأمة الجرمانية بأسرها الاّ في جانب من عقلائها وعلمائها وحكمائها الذين أصبحوا لدى هذا الوباء النازي بلا حول ولا طول . ذلك هو السبب الأصيل لهذه الكارثة التي بليت بها الانسانية فاضطرت جميع الامم ان تضحي براحتها وهنائها وسلامها في سبيل الاحتياطات التالية لاتقائها وتدارك نتائجها « الدمارية » . فالظركم هو تأثير تفكير المفكرين في النظم الاجتماعية .. وقارن رسالات الانبياء والرسل الاقدمين بمبادىء شذاذ المفكرين والفلاسفة المتأخرين

مثل هذه المبادىء العوجاء والفلسفات العوجاء تختلق عذراً لتحديد حرية المفكرين والخطباء والمحررين ، ولاسيما لأن العامة ضاف الحكم قصار النظر ضيقو الفكر . تتلاعب بعقولهم اهواء الكتّاب والخطباء كما تتلاعب الرياح بخفاف الريش والهباء . فخليق بأهل التفكير والتحبير ان يرموا بأبصارهم الى الاهداف التي تصيبها افكارهم وآراؤهم في النُظم الاجتماعية

القاعدة الأساسية للفلسفة الاجتماعية في اصطناع الآراء التي يراد بها ارشاد الجماهير هي ان يكون الهدف الاخير لكل رأي وفكر ادبي وخلقي واجتماعي تكتيل الجماعة وضم الجماعات وربطها برباط المصالح الاجتماعية الحقة العادلة، لا التفريق بين الافراد والامم بتمجيد العصبيات الجنسية والنعرات الوطنية . ان تمجيد الجنس والوطن كان منذ القديم والى اليوم سبب تنازع الامم وحروبها . والآن وقد اصبحت الامم على اتصال سريع فيما بينها صار في الامكان ملاشاة العصبية الجنسية في « الانسانية العليا » وافناء « الوطنية » في « الاممية العامة »

فليفكر قادة الامم المفكرون في هذه القاعدة الانسانية قبل ان يمسكوا الاقلام ويقفوا على المنابر